جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

عبد الحميد بن باديس مفسرا

رسالة مقدمة من

حسن عبد الرحمن محمد أحمد

للحصول على درجة الماجستير في الآداب

اشراف

الأستاذ الدكتور مصطفى ناصف

و

الدكتور عبد الصبور شاهين

١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م

الاهـــداء

الى الذى كان ينتظر هذه اللحظة ولكنه قضى
..... الـى والـــدى

الفهـــرس

رقم الصفحة

المقدمـــة : ..... ١ ـ ٥

الفصل الأول : الاتجاهات السياسية والفكرية فى عصر ابن باديس ..... ٦ ـ ٣١

أولا : السياسة الفرنسية وأثرها فى المجتمع الجزائرى . ٧

ثانيا : بوادر الوعى ومظاهر المقاومة السياسية . ١٤

ثالثا : الحالة الثقافية فى ظل الاحتلال الفرنسى . ٢٣

الفصل الثانى : حياة ابن باديس وتربيته ..... ٣٢ ـ ٥٢

أولا : النشأة والتكوين العلمى . ٣٣

ثانيا : المؤثرات الثقافية . ٣٨

ثالثا : شخصية ابن باديس . ٤٣

رابعا : وفاته وآثاره . ٤٩

الفصل الثالث : الصورة العامة لتفسير ابن باديس ٥٣ ـ ٦٥

الفصل الرابع : الجانب الدينى فى تفسير ابن باديس ٦٦ ـ ١٢٨

أولا : موقفه من المسائل الاعتقادية ٦٨

ثانيا : موقفه من المسائل الفقهية ٨٧

ثالثا : ابن باديس والتفسير العلمى ١٠٩

رقم الصفحة

الفصل الخامس : الفكر الاصلاحى فى تفسير ابن باديس ١٢٩ ــ ٢٠٨

أولا : الاصلاح الخلقى . ١٣٠

ثانيا : الاصلاح التربوى . ١٥٤

ثالثا : ابن باديس ومظاهر الانحراف الصوفى . ١٧٧

الفصل السادس : الفكر السياسى فى تفسير ابن باديس ٢٠٩ ــ ٢٥٠

أ ــ الصراع ضد الاستعمار . ٢١٤

ب ــ نظام الحكم . ٢٢٧

جـ ــ القضايا القومية . ٢٤٠

الفصل السابع : تقويم ومقارنة ... ٢٥١ ــ ٢٩٩

أولا : منهج ابن باديس فى تفسيره : ٢٥٢

أ ــ الفكر النظرى : ٢٥٣

١) المنهج الالتزامى فى تفسيره . ٢٥٣

٢) تحديد العلاقة بالتمدن الغربى . ٢٦٢

ب ــ التطبيق العلمى : ٢٧١

١) فى الأداة اللغوية . ٢٧٢

٢) فى الأسلوب . ٢٧٦

٣) فى الاستعانة بالحديث النبوى . ٢٨١

ثانيا : مكانة ابن باديس كمفسر . ٢٨٥

الخاتمة : ..... ٢٩٣ ــ ٢٩٩

المصادر والمراجع: ..... ٣٠٠ ــ ٣١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعد دراسة التيارات الفكرية فى أعمال المفسرين فى عصر النهضة العربية الحديثة (١٧٩٨م - ١٩٣٩م)، مدخلا مهما لدراسة الفكر العربى المعاصر من جوانبه المختلفة ، ذلك أن كثيرا من الموضوعات التى تناولها مفسرو ذلك العصر ضمن اطار حركة الاصلاح ، والتحديث التى أرادوها لمجتمعهم ، مازالت تشغل كثيرا من المفكرين فى العصر الحديث .

من أجل ذلك فان العودة الى فكر هؤلاء المفسرين وآرائهم، كما تبلورت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، تعد أمرا ضروريا لفهم حقيقة الفكر العربى الحديث ، ومعرفة أبعاده وعوامل تطوره ، وبالتالى لفهم طبيعة الأزمة التى يعانيها هذا الفكر ، والتى تمتد جذورها الى بواكير عصر النهضة الذى أشرنا اليه .

ولقد توفرت - لحسن الحظ - دراسات جادة عديدة، تناولت الاتجاهات الفكرية عند مفسرى هذا العصر وفكره بالدراسة ، والتحليل والمقارنة ، وليس لنا من مأخذ على بعض هذه الدراسات سوى انها قد أغفلت - عن غير عمد - أعمال نفر من المفسرين البارزين الذين ظهروا فى فترات متباينة فى أقطار عربية واسلامية عديدة ، وأسهموا بآرائهم ، ونشاطهم ، وتلاميذهم فى التأثير فى نمط التفكير السائد فى بلادهم ، حتى غدت تعاليمهم الأساس الكامن لكثير من العلاقات الاجتماعية والأفكار الدينية لدى المسلم المثقف فى الوقت الحاضر .

وعلى رأس هؤلاء المفكرين الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس الذى يعتبر أبرز المفكرين الجزائريين الذين عملوا على صياغة الأسس النظرية لحركة الاصلاح الجزائرية فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ الأمة العربية فى العصر الحديث ، وقد اتجهت هذه الحركة مثلما فعلت نظيرتها فى المشرق الى تأطير عملية المواجهة التى قصد منها الوقوف أمام التحدى المتعاظم للحضارة الأوروبية وللوجود الاستعمارى نفسه .

ولاشك أن جهود بن باديس فى هذا الصدد ، وعمله الدؤوب لاحياء المعنى الاجتماعى للدين ، وبث المشاعر الدينية فى نفوس مواطنيه ، قد أثمرت فى نهاية المطاف حين قامت الثورة الجزائرية المسلحة ، وأكدت بالدليل القاطع أن الطريق الى الكفاح المسلح والتحرير من الاستعمار يستند أولا الى العامل الذاتى كما وأثبتت أن نظرية الثورة لاتستورد وكذلك أداتها ، فقد كان النور الذى هدى هذه الثورة الى النصر والتحرير ، ومن ثم الى الاستقلال هو نور الاسلام ، كما كان الفكر الدينى المتجدد أساسها الثقافى ، وسلاحها النظرى ، ولم يكن فى الميدان غيره عند انطلاقتها الأولى .

من هذه الزاوية اكتسب ابن باديس مكانته فى نفوس الجزائريين ، واعتبره الكثيرون أبا اليقظة الوطنية فى الجزائر ، فمعظم خارج الدائرة الاستعمارية ، ورفضه لكل المحاولات التى أرادت اغراءه بالرفاهية والطموح عن طريق ربطه بالمؤسسات الوظيفية ، كما أن تفانيه لمبادئه واخلاصه لأصدقائه ولزملائه فى جمعية العلماء . كل هذه علامات جعلت الشعب الجزائرى يرى فيه الامام الذى ينتمى الى الرعيل الأول من المسلمين ، ويرى فيه قائدا للجماعة وخليفة — بحق — لقادة الاسلام الروحيين (١) .

---

(١) القائد الرائد : محمد الصالح رمضان ، مجلة القبس ، العدد الثانى ، السنة الرابعة ١٩٧٠ ، ص ٢٩ .

ومع هذه الشهرة العريضة والمكانة الرفيعة ، فلا يزال ابن باديس علما وموضوعا يحتاج الى الدرس والمناقشة واعادة التقييم ، ذلك أن الدراسات التي كتبت عنه مازالت حتى الآن عاجزة عن القاء الأضواء على جوانب فكره المختلفة ، اذ أن غالبية هذه الكتابات — وخاصة ماكتب منها في الجزائر — اقتصرت على التأريخ لحياته وعلى استعراض آرائه كما أوردها في مقالاته وكتاباته دون اتخاذ مواقف نقديه واضحة ، هذا فضلا عن أن أيا منها لم يتناول الجانب الأهم من فكر الشيخ وهو تفسيره للقرآن الكريم بدراسة مفردة مستقلة ، بل ان ما كان منها متعلقا بهذا التفسير لايعدو أن يكون اشارات عامة مجملة وردت لماما أو مصادفة أو جاءت في سياق الحديث عن مكانته وسيرته التي يشوبها أحيانا طابع المبالغة والتهويل ، وأحيانا أخرى تسقط في مجال تأثري انطباعي .

لذلك يأتي هذا البحث محاولة متواضعة جادة للكشف عن قيمة تفسير ابن باديس وأهميته ، ومايتمتع به من ميزات شكلية وموضوعية مع دراسة منهجه ، وبيان القاعدة الفكرية التي أسس عليها .

وقد اخترت تفسير ابن باديس ايمانا مني بأن المسلمين في تخلفهم وانحدارهم لايمكن أن ينهضوا نهضة حقيقية الا بالبحث عن ذاتهم الحضارية بحثا حقيقيا ، واستلهام تعاليم دينهم ، وثقافتهم التاريخية الخاصة لكي يتابعوا السير على طريق أسلافهم في بناء الحضارة الانسانية ، ومن هنا فان دور ابن باديس وغيره من الزعماء والمصلحين يجب أن يحظى بالاهتمام والدراسة ، لأن الفضل يعود لهم في بعث النهضة العربية الجديدة ، باعتبارهم الرواد الأوائل الذين وجهوا طاقاتهم وجهودهم في ميدان الاصلاح ، ومقاومة مناهج المستعمرين .

فالشيخ عبد الحميد بن باديس هو أحد هؤلاء الزعماء المصلحين الذين ناضلوا عن عروبة الجزائر ، والتزموا الدعوة بأن يكون تطورها ، وتقدمها في نطاق حضارتها العربية الاسلامية ، ولولا جهوده التي بذلها في سبيل الحفاظ على الشخصية الجزائرية العربية ، وجهود أمثاله من حماة الشخصية العربية الاسلامية للجزائر ،

لكان من الممكن أن يكتب تاريخ الجزائر على نحو مختلف .

من أجل ذلك كان هدفي من هذا البحث ابراز جهود ابن باديس في التفسير والاصلاح ، وتقويم منهجه الذي اختطه لنفسه في تفسير الآيات ، وربط محاولته الاصلاحية ، ومقارنتها بغيرها من الحركات الاسلامية التي ظهرت في العالم العربي الاسلامي في العصر الحديث .

أما عن الخطة التي التزمت بها في هذا البحث، فتقوم على طريقة خاصة في تناول الموضوع ، فقد حاولت في البداية كمدخل الى صلب الرسالة أن أعرض بسرعة للاتجاهات السياسية والفكرية التي كانت تتفاعل في عصر ابن باديس مع التركيز على الاتجاه الاصلاحي الاسلامي الذي اعتبر ابن باديس رائده ومؤسسه الرئيسي .

وبعد أن فرغت من تبيان ذلك ، اتجهت في الفصل الثاني الى دراسة حياته من حيث نشأته وتكوينه العلمي ، والمؤثرات التي أثرت في تكوينه الثقافي ، وشخصيته وآثاره العلمية ، وقد كان في ذلك كله اشارات ذات مغزى تتصل بمعالم فكره وآرائه كما طرحها في تفسيره .

أما الفصل الثالث، فقد تحدثت فيه عن الصورة العامة لتفسير ابن باديس من حيث جمعه ومصادره ، والطريقة التي اتبعها في تفسير الآيات ، وهي تشكل جانبا مهما من دراسة هذا التفسير ، اذ الالمام بطريقته هذه سيقودنا بالتأكيد الى معرفة اتجاهه الحقيقي في تناول الآيات وفهمها .

وخصصت الفصول الثلاثة التالية للحديث عن جوانب فكره وآرائه ، ومواقفه ، ففي الفصل الرابع، عرضت جانبا من فكره الديني فدرست موقفه من المسائل الاعتقادية والفقهية والتفسير العلمي ، وتناولت في الفصل الخامس فكره الاصلاحي فعرضت آراءه في الاصلاح الخلقي والتربوي وموقفه من مظاهر الانحراف في المجتمع الجزائري ، أما الفصل السادس فقد تحدثت فيه عن فكره السياسي من حيث

مواجهته للنظام الاستعمارى القائم ، ورأيه فى مسألة نظام الحكم وموقفه من القضايا القومية .

وقد حاولت فى هذه الفصول الثلاثة أن أعرض فكر الشيخ فى موضوعات محددة ، وفى داخل الموضوع الواحد كنت أعتمد على العرض أكثر من التحليل ، وهذا يعنى محاولة الاقتراب من الفكر دون اقحام الرأى الى هذا الحد أو ذاك ، الا ما دعت اليه الضرورة ، ثم جعلت الفصل السابع والأخير بمثابة تقويم لجهود ابن باديس فى التفسير ، وقد تضمن هذا الفصل رأيا متواضعا بنيته على الفصول السابقة ، وقد حرصت خلال ذلك كله على احترام الروح العلمية ، والالتزام بالموضوعية دون أن أدعى تحررى تماما من عين الاعجاب أحيانا ، وماتتركه من أثر على مايجرى من مناقشات خلال صفحات البحث .

وقد بذلت — علم الله — الجهد ما استطعت ، ولم أقصر فى الرجوع الى المراجع التى تتعلق بابن باديس ، وتوضح جوانب فكره المختلفة ، ومع ذلك فاننى لا أزعم أن عملى هذا يخلو من الشوائب والهفوات والثغرات ، وانما هو جهد المبتدئ على طريق المنهج العلمى فى رحاب الجامعة .

وأخيرا لايفوتنى أن أسجل كلمة شكر وعرفان بالجميل لأستاذى الفاضلين : أستاذى الدكتور مصطفى ناصف ، وأستاذى الدكتور عفت الشرقاوى الذى أحاطنى برعايته الشاملة ، وأشرف على كل خطوات البحث منذ أن كان فكرة الى أن أتيح له أن يظهر الى النور ، كما أمدنى بعلمه الغزير ، ونصحه المخلص وعونه السخى ، وتوجيهه الذى كان يبدو أحيانا فى صورة القسوة المشفقة وأحيانا فى صورة الشفقة القاسية ، فله أقدم أسمى آيات الشكر والتقدير والعرفان بالجميل .

■ ■ ■

الفصل الأول

الاتجاهات السياسية والفكرية في عصر ابن باديس

أولا : السياسة الفرنسية وأثرها في المجتمع الجزائري .

ثانيا : بوادر الوعي ومظاهر المقاومة السياسية .

ثالثا : الحالة الثقافية في ظل الاحتلال الفرنسي .

* * *

أولا : السياسة الفرنسية وأثرها فى المجتمع الجزائـــرى

بعد حصار استمر ثلاثة أعوام للشواطىء الجزائرية (١٨٢٧ م ــ ١٨٣٠م) وطئت أقدام الفرنسيين الغزاة أرض الجزائر فى منطقة (سيدى فرج) التى تبعد عن الجزائر العاصمة حوالى ثلاثة وعشرين كيلومترا .

كان الهدف من الحملة حسب ما ادعت الحكومة الفرنسية فى ذلك الوقت هو الانتقام للشرف الفرنسى الذى أهدره (حسين داى) ، حين لطم بالمذبة وجه قنصلها (دوفال) فى الجزائر ، غير أن هذا الادعاء لم يعد كونه تبريرا واهيا لجملة أهداف أرادت فرنسا تحقيقها من وراء تلك الحملة من بينها : زيادة شعبية الملك شارل العاشر الذى تم الغزو فى عهده ، والتخلص من دفع الديون المترتبة للجزائر على فرنسا منذ عام ١٧٩٨ م ، والاستمرار فى سياسة التوسع الاستعمارى بعد نكسة السياسة الفرنسية أمام السياسة البريطانية .

ويضيف بعض المؤرخين سببا آخر يتعلق برغبة فرنسا فى الظهور بمظهر الذى يقوم بحرب صليبية غربية ضد قراصنة شمال أفريقيا (١) ، فى حين يرى الأخرون أن التطور الاقتصادى الرأسمالى فى فرنسا بين ١٨٣٠ م ــ ١٨٤٨م قد بلغ حدا دفع بالبرجوازية الرأسمالية الى التطلع عبر حدودها نحو الجزائر التى كانت بالنسبة لها مصدرا غنيا بالمواد الأولية (٢).

---

(١) انظر ، الحوليات الجزائرية : الدكتور محمود احسان هندى ، العربى للاعلان والنشر ، دمشق ، ١٩٧٧م ، ص ٨٤ .

(٢) الأدب الجزائرى المعاصر ، الدكتوره سعاد خضر ، المكتبة العصرية ، صيدا سنة ١٩٧٣م ، ص ٢٤ .

ومهما يكن من أمر الأسباب التي أدت الى هذا الحدث التاريخي الهام في تاريخ الجزائر ، فقد قضى الأمر (باتفاقية الجزائر) التي وقعها حسين داي نفسه مع الجنرال (بورمون) قائد قوات الاحتلال بتاريخ (٥ يوليو ١٨٣٠) ، وأصدر الفرنسيون حال دخولهم الحاصمة بيانا تعهدوا فيه بصيانة الممتلكات ، والمحافظة على المقدسات الاسلامية ، وعدم التدخل في الشئون الدينية ، كما أعلنوا أن الهدف الرئيسي من وراء حملتهم على الجزائر هو تخليص الجزائريين من حكم الداي المستبد وتحريرهم من جور الأتراك [١] ، غير أنهم اعتبروا الجزائر أرض أعداء محتلة تخضع للحكم العسكري المباشر طوال أربع سنوات (١٨٣٠ — ١٨٣٤) ، يتمتع الجيش خلالها بكل الصلاحيات لمعالجة الاوضاع في المناطق المحتلة .

انتهج الفرنسيون في بداية احتلالهم للجزائر سياسة الاحتلال الجزئي حيث اقتصرت سيطرتهم على المناطق الساحلية بينما بقيت الأرياف الداخلية والمناطق الجنوبية الصحراوية بعيدة عن نفوذهم وسلطتهم الفعلية ، ولكن هذه السياسة مالبثت أن تغيرت لتحل محلها سياسة الاحتلال الكلي [٢] ، ففي الثاني والعشرين من يوليو ١٨٣٤ م ، أصدرت فرنسا نظاما خاصا أكدت فيه نواياها بالاحتلال الدائم ، متنكرة بذلك لاتفاقية الجزائر ، وقد نص هذا النظام الجديد على تعيين حاكم عسكري عام ، وتقسيم الجزائر الى ثلاث ولايات يتولى رئاسة كل منها موظف فرنسي يرتبطون جميعا بوزير الداخلية في فرنسا [٣] .

---

(١) الحركة الوطنية الجزائرية (١٩٠٠ — ١٩٣٠) : الدكتور أبو القاسم سعد الله ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٢٤ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٦ .

(٣) عند الدكتور صلاح العقاد مرتبط بوزارة الحربية (انظر ، المغرب العربي ، ط ٢ ، مكتبة الانجلو ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٤١) .

أعلن الشعب الجزائرى رفضه لهذا النظام ، وقاومه ، وظهر ذلك من خلال الثورات العديدة التى اشتعلت فى طول البلاد وعرضها بدءا بثورة أحمد باى فى شرق الجزائر ، وثورة الأمير عبد القادر (١) فى غربها ، وانتهاء بثورة محمد المقرانى فى منطقة القبائل ، ولكن سلطات الاحتلال أفلحت فى القضاء عليها جميعا بعد معارك شرسة كان حصادها بالنسبة للجزائريين فظيعا فقد دمرت بلادهم ، وتهدم وضعهم الاقتصادى بفعل النهب المنظم وبفعل حرق الزرع ، واقتلاع الشجر بحيث أصبح السكان العرب فريسة للأمراض والمجاعات .

وقد لجأت فرنسا بعد قضائها على المقاومة المسلحة الى سلسلة من الاجراءات القمعية لتوطيد دعائم احتلالها ، وتكريس وجودها ، فأصدرت ما يسمى بقانون الأهالى " الانديجنا " سنة ١٨٧٤م ، وهو قانون عنصرى وصفه الاستاذ محمد فريد بعد زيارته للجزائر بقوله : " يعامل المسلمون فى الجزائر بقوانين مخصوصة فى غاية الشدة والصرامة فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع بل من حرية السفر والانتقال ، وحرية مطالعة الكتب والجرائد ، والأغرب من جميع ذلك ، بل الذى لايمكن وقوعه من اكثر الأمم احتراما للقانون وتمسكا بالعدالة أنه يجوز لجهات الادارة أن تسجن أى عربى مهما كانت مكانته ومنزلته بين قومه بمجرد اشتباهها فى سلوكه أو فى أمانته واخلاصه لها ، حتى بمجرد الظن بأن وجوده مطلق السراح مضر بالأمن العام (٢) " .

---

(١) بويع الأمير بالامارة سنة ١٨٣١ ، وحارب الفرنسيين حتى سنة ١٨٤٨ م حيث أسر فى (دارت) ، ثم نفى الى دمشق .

للتوسع فى حياة الأمير أنظر : تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبد القادر : محمد بن الأمير عبد القادر الجزائرى ، دار اليقظة ، دمشق ١٩٦٤م .

(٢) الحرية الشخصية فى الجزائر ، محمد فريد ، مقال منشور فى جريدة اللواء عدد ٦٩ الصادرة فى ٩ أكتوبر ١٩٠١ م .

ثم عملت بعد ذلك على تمزيق الوحدة الوطنية للشعب الجزائري بإثارة النعرة العصبية والقبلية ، والتفريق بين العرب والبربر (١) فزعمت أن البربر ينتمون الى سلالة أوروبية ، وأن لهم لغة وأعرافا خاصة ، وكيانا مستقلا ينبغي أن يحافظوا عليها ، فمنعتهم من تعلم اللغة العربية وعملت على احياء اللغة البربرية والتقاليد والاعراف الأمازيغية الوثنية القديمة لتكون الأساس الذي يحتكمون اليه من الناحية القانونية بدل الاحتكام الى الشريعة الاسلامية كما كان العمل جاريا منذ قرون .

وسعت فرنسا بكل مالديها من وسائل لتحطيم المرتكزات الروحية للشعب الجزائري ، وتشويه صورتها والتهوين من أمرها ، ويبدو هذا جليا من خلال محاربتها المستمرة للدين الاسلامي ، وتشجيعها للمبشرين ، ولمظاهر الانحراف الديني ، وقد وصف م. بيرك مدير الشئون الأهلية في الجزائر أساليب الاستعمار في محاربة الدين الاسلامي فقال : " لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الاسلامي الى درجة أننا لم نكن نسمح بتسمية المفتي أو الامام الا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس (٢) " ، وشجعت في المقابل كل مظاهر الانحراف الخلقي ، ففتحت الحانات والمواخير ، فوجد الشباب الجزائري نفسه أمام أحد أمرين : إما الارتماء في أحضان الانحراف الخلقي أو الارتماء في أحضان الانحراف الديني والشعوذة الصوفية .

بهذه الوسائل جميعا شعرت فرنسا أنها قد حققت هدفها بتفتيت وحدة الجزائريين ، واضعاف قدرتهم على المقاومة ، فبدأت في تنفيذ سياستها الرامية الى استغلال الجزائر اقتصاديا وبشريا ، وقد تبلور هذا الاتجاه في هدفين رئيسيين سعت السلطات الفرنسية لتحقيقهما :

---

(١) يفضل البربر أن يطلق عليهم اسم الأمازيغ ومعناها الأحرار الشجعان .

(٢) أنظر : الجزائر عبر الأجيال ، مسعود مجاهد ، دار الأيتام الاسلامية ، القدس ، ص ٣٤٠ .